الزمان والتاريخ
في الكتابة التاريخية العربية

مهند مبيضين*

تمهيد

ابتداء المدونات التاريخية العربية بسرد أخبار الزمان الأول أو نشأة الخلق وذرئهم، لم يكن بدعة إسلامية، بل هو تقليد لدى الأمم السابقة: الفرس والهند واليونان وغيرهم، وقد كان يُشكل جزءاً من المعرفة التاريخية وبداية الوعي بالزمان الإنساني، أو محاولة للبحث عن النص المؤسس لبدء الخليقة، وهو عند العرب وإن كان يحمل المضامين نفسها، إلا أنه يشكل في جانب منه محاولة لإدراك العلاقة والنسب بين أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- وسلسلة الأمم والأنبياء السابقين.

لكن هذا الإصرار سرعان ما تغير، مع تبدلِ مفهوم التاريخ وتحوله من "منقول شرعي" إلى رصد الحادثات ونقل أخبار الهيئة الاجتماعية للشعوب وتاريخ الملل، وجعلها في بطن الزمان، وليس ذلك لأن التاريخ خالٍ من الأحداث التي تستوجب التدوين والذكر أحياناً. بل لأن رغائب المؤرخين لم توافق الزمان، فعزفت عن تدوينه، وهي التي انتهت ببعض مؤرخي الحوليات في العصر الحديث للقول: "لم يقع ما يؤرخ" في تلك السنة.

في البدايات المؤسسة لتاريخ البدء الذي يركز على الوصل بين خلق الكون وهبوط آدام للأرض وبعث الأنبياء وصولاً إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، نجد إصراراً على تلك الصلة أو توكيدها، وذلك ما يشفُّ عنه الحوار بين آدم وجبريل عليهما السلام، الذي أورده

ابتداء المدونات التاريخية العربية بسرد أخبار الزمان الأول أو نشأة الخلق وذرئهم، لم يكن بدعة إسلامية، بل هو تقليد لدى الأمم السابقة

إخباريّ مولع بذكر القصص والإسرائيليات، وهو وهب بن منبّه(ت: ١١٤هـ/ ٧٣٢م)[١] حين يقول:" فقال جبريل: يا آدم، إن الله لم يخلق بشراً قبلك أنت أبو البشر، فاشكر الله تعالى، قال: فرفع آدم بصره إلى العرش، فرأى في ساق العرش مكتوباً بالنور(لا إله إلا الله محمد رسول الله) وكان ملماً للقراءة، فقال: يا جبريل، ألم تقل إني أبو البشر، وهذا محمد مكتوب في ساق العرش، فقال جبريل: صدقت يا آدم صدقتك، هذا محمد حبيب الله أكرم البشر على الله، خاتم الأنبياء من ولدك، وبه تكنى يا أبا محمد، له غداً المقام المحمود، وله الشفاعة والحوض والكوثر.."[٢].

وإذ كان الزمان هنا يؤكد المتصل مع زمن النبوة، إلا أنه في مواضع أخرى كان مختلف التناول، ومختلفاً في المعنى، فهل هو التاريخ أو الدهر؟ وذلك ما يمكن الإجابة عنه في بحث المدونات التاريخية العربية الإسلامية، في كيفية تعاملها مع الزمان المبتدأ، والزمان الناقل للأحداث والزمان المدرك، والزمان المستدعى، وهو ما يمكننا فيما بعد البحث عن الخبر الذي ينتهي بالمؤرخ المسلم ليقول إن زمن النبوة هو استمرار لزمن الخليقة وهو ما يسميه رضوان سليم بالزمن الديني[٣].

ومع أن دارسة رضوان سليم جاءت لتجيب عن بعض من الأسئلة، إلا أنّ البحث في مفاهيم الكتابة التاريخية عند العرب يظل ممكناً طالما بقي السؤال عن التقليد والبدء والوعي المُدرك عندهم يشكل بداية تبلور الاتجاهات والميول وظهور المدارس والوعي بالزمان، وهنا يبدو أن مؤرخي العرب استخدموا مفهوم الزمان والتاريخ دونما فصل بينهما في البداية، ولكنهم ما لبثوا أن جعلوا التاريخ من أمور الزمان، الذي هو عند بعضهم مدة تشير إلى الوقت القصير أو الطويل.

وهنا نطالع في الزمان المكتوب أخباراً طويلة وعهوداً وأياماً وغزوات. لكن، لا نعرف لماذا يُصر مؤرخو العرب، وهم على وعي لما أدركوه أو وصل إليهم متصلاً بالإسناد، وهم العارفون برواية القرآن عن بدء الخليقة، على اللجوء لأخبار الخلق والمبدأ وذرء البرية من آدام إلى إبراهيم عليهما السلام، علماً بأن تلك الروايات لا تخلو من إسرائيليات، ونجد من يتحفّظ على قبول ما هو خارج دائرة الخطاب الرباني في الكتاب الكريم وهو ما يمثله نموذج إسماعيل بن كثير (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) الذي نبّه في مقدمة كتابه البداية والنهاية على ذلك بقوله:" ولسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله، وسنة رسوله، وهو القسم الذي لا يصدق ولا يكذب...وإنما الاعتماد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما صح نقله أو حسن، وما كان فيه ضعف نبينه..."[٤].

وأياً كان نص ابن كثير، وأيا كانت مرجعيته، فإنه يحمل تنبيهاً ولو أنه جاء متأخراً عن زمن التدوين،

لمخاطر الاعتماد على ما لا يوافق الكتاب/ القرآن، وهو تنبيه سنجده حاضراً ضمنياً في وعي المؤرخين الذين سبقوه واللاحقين له، وهو ما قد يفتح الباب للاستقرار في تعريف التاريخ على أنه إخبار عن "الحادثات الماضيات"، كما يرى الكافيجي (ت: ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) إذ رأى أنه:"منقول عرفي كسائر المنقولات الشرعية والعرفية كالإيمان والصلاة ونحوها"[٥] أو علم من الأخبار التي تتناول أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائعهم[٦]. وفي حديث الكافيجي فإن التاريخ علم منقول كسائر العلوم الشرعية، تقليل من شأن التاريخ وعلميّته.

واستقر عند بعض المؤرخين والعاملين في حقل المعارف الإسلامية تسمية التاريخ "بعلم الخبر" وهو ما ذهب إليه محمد بن موسى الخوارزمي (ت: بعد ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) الذي قدم التاريخ بوصفه علماً مستقلاً من بين العلوم الستة في مقالته الأولى وسماه **"الأخبار"**[٧]. وعدّ ابن حزم الظاهري الأندلسي(ت.٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) التاريخ علماً بالأخبار وجعله على مراتب: "إما على الممالك، أو على السنين، أو على البلاد، أو على الطبقات، أو منثوراً"[٨]. وفي مقابل هذا التحديد، يبدو أن التاريخ وجد علميته بوصفه نقلاً للأخبار، أو علماً بها، أو إخباراً عنها، لكن هذا العلم لم يتحدد الفصل بينه وبين الزمان الذي تجري به الوقائع، فظل هناك التزام عند الكتاب والمؤرخين على التدوين انطلاقا من الزمان، وليس من الخبر، الذي ظل نقله مسكوناً بهواجس المحدثين التي كانت ترى أن أي خبر قد يدخله الصدق أو الكذب، لكونه مجرد كلام منقول.

ومن يطالع المدونات والأصول التاريخية العربية، يجد أن الإصرار على أن تكون بدايتها بكتابة أول الزمان، وهو البدء والخليقة، لم يستمر في الكتابات التي تعدّت العصر المملوكي، فثمة قطيعة تحدث مع بدء الأزمنة الحديثة، ووصول العثمانيين للمنطقة، وهنا يمكن البحث عن أسباب التاثير والتأثر بالكتابة العالمية للتاريخ[٩]، أو بربط الأمر بتحول المُلك إلى ديار غير ديار العرب. فهل خروج الحكم وانتقاله من القاهر ة لإسطنبول كان سبباً في تلك القطيعة أم لا؟ أم أنّ للأمر أسباباً أخرى؟ تتعلق بتدوين الزمان المُدرك أو الحاضر، وأحياناً يكون الصمت أو الترفع عن التدوين والتسجيل لأسباب متنوعة من أهمها أن المؤرخ يرى أن ما حدث من "واقعات" هو نوع من المحن والأهوال. وقد يكون مرد تلك القطيعة إلى تحول الوعي عند المؤرخ العربي، بالكتابة وهو ما جسدته كتابة الحوليات التي تجاوزت الزمن المقدس وحيز الحدث و التركيز على الحقب الطويلة وصرف النظر عن الحياة السياسية بالقدر الذي يسمح به

يبدو أن مؤرخي العرب استخدموا مفهوم الزمان والتاريخ دونما فصل بينهما في البداية، ولكنهم ما لبثوا أن جعلوا التاريخ من أمور الزمان، الذي هو عند بعضهم مدة تشير إلى الوقت القصير أو الطويل.

تاريخ الجوانب الاجتماعية، فصار المؤرخون منذ العصر المملوكي يبدأون تاريخ كل سنة بذكر الخليفة أو سلطان الممالك وقضاة الشرع والمحتسب..الخ، ثم يبدأ عندهم تاريخ آخر يُدونون فيه ما يعيشونه من أحداث ويذكرون تفاصيل حياة مجتمعهم، ووفيات كل سنة وأخبار السلع والأسواق والأخلاق وأهل العلم والجوائح والفساد وأخبار مجالس العلم وتعديات العسكر وظلم الولاة.

البدايات المؤسسة

عند فحص المقدمات التاريخية لنماذج من المؤرخين العرب، نجد أنهم يتعاملون مع التاريخ على أنه أحداث تجري ضمن مدة أو زمن، وهذا ما يفسر إصراراهم على البدء بمقدمات عن شكل الكون وبداية الخلق، والإجابة عن سؤال أول ما خلق الله؟ لكنهم في جميع تجاربهم ينتهون إلى كتابة تاريخ الإسلام الذي يبدأ بولادة الرسول وبعثه، ثم يبدأ التدوين عندهم بالهجرة النبوية، وهي الزمن الفاصل والمثبت لكل تواريخ الإسلام فيما بعد.

إذا ولجنا البدايات المؤسسة لتقليد الكتابة من منطلق تاريخ البدء وسؤال المصادر والمعلومات فإننا نجد على خلاف ما فعل رضوان سليم، أن الوقفة الأولى كان يجب أن تكون ليس مع محمد بن جرير الطبري، بل مع وهب بن منبّه الذماري اليماني[١٠]، الذي يلتقط التاريخ ويسرده بعد أن يقارنه مع ما لديه من كتب وصحف وألواح ويأتي به قصاً يطوعه كيفما يشاء واتفق.

يشير وهب بن منبّه في كتابه التيجان إلى أنه قرأ ثلاثة وتسعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء، فوجد أن الكتب التي أنزلها على النبيين جميعهم مئة وثلاثة وستون كتاباً، وقد أنزل على آدم صحيفتين، واحدة في الجنة، وأخرى على جبل لبنان، وعلى شيث بن آدم خمسين صحيفة، وعلى اخنوخ وهو إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى نوح صحيفتين، وعلى هود أربعاً، وعلى صالح صحيفتين، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة وعلى موسى خمسين صحيفة، وهي الألواح.[١١]

إن معرفة وهب وسرده لبدء الخليقة قد جعلته يأخذ من هذه المصادر، التي ألهمتْه بتدوين بدء الخليقة حيث تبدأ بخلق الماء على الهواء، وخلق الهواء على الماء، ثم يضطرب فيها الماء ويهيج ويصطفق الزبد، ثم يرفع الله السماء وهي دخان، فهو يحاول أن يوافق بين ما قرأ واطلع عليه من صحف وما جاء في القرآن كقوله تعالى:(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين) (فصّلت/ ١١).

وأياً كان نص ابن كثير، وأيا كانت مرجعيته، فإنه يحمل تنبيهاً ولو أنه جاء متأخراً عن زمن التدوين، لمخاطر الاعتماد على ما لا يوافق الكتاب/القرآن، وهو تنبيه سنجده حاضراً ضمنياً في وعي المؤرخين الذين سبقوه واللاحقين له.

ومن يطالع المدونات والأصول التاريخية العربية، يجد أن الإصرار على أن تكون بدايتها بكتابة أول الزمان، وهو البدء والخليقة، لم يستمر في الكتابات التي تعدّت العصر المملوكي.

لكن مشكلة وهب بن منبّه التي لازمت رواياته كانت في كونه غير ثقة عند بعض المؤرخين، لأنه كان يأخذ من الإسرائيليات كثيراً، مما حال دون الاعتماد عليه عند البعض، وإن كانت جُل عمليات التدوين تنهج خطه في السرد عن قصة الخلق.[١٢]

وانطلق محمدبن جرير الطبري (ت:٣١٠هـ/ ٩٢٢م)[١٣] في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" من مصادر جمة وروايات عديدة أبرزها لعروة بن الزبير (ت: ٩٤هـ/ ٧١٢م) ومحمد بن شهاب الزهري (ت:١٢٤هـ/ ٧٤٢م) وعمل إمام المحدثين محمد بن اسحق في سيرة الرسول واخباره ومغازيه، وقد بدأ تاريخه بالسؤال عن الزمان، حيث يحدده بأنه"ساعات الليل والنهار، وقد يقال ذلك للطويل من المدة والقصير منها" ثمّ ويشرح الطبري تعامل العرب مع الزمان، بأنه تعيين للوقت فالعرب تقول:" أتيتك وزمن الحجاج أمير- أي أن الحجاج كان أميراً- وتقول: اتيتك زمن الصّرام، تعني به وقت الصرام - وصرام النخلة أوان اجتناء ثمرها- والزمان عند الطبري وقت وتحديد لتاريخ.[١٤]

ويتابع الطبري أمر الزمان وعمر الدنيا، مستدلاً بجملة أحاديث وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم تشير إلى أن عمر الدنيا ستة آلاف عام، ثم يذكر تقدير الأمم الأخرى لعمر ها، مستشهداً بما أخبر عنه اليهود، وما جاء عند المجوس، وما عارض به اليونان اليهود بقوله:" وأما اليونانية من النصارى فإنها تزعم أن الذي ادعته اليهود من ذلك باطل...".[١٥] ولا يحسم الطبري القول، ويشكك بما رود إليه أو نقله عن الأمم الأخرى ويترك الأمر معلقاً، إذ اكتفى بعرض الآراء، مذكرا أن أهل الأخبار "بعد مختلفون في أمره.."[١٦]. كما أنه يسوّغ سبب إيراده الأقوال المختلفة والاحتجاج بما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم.[١٧]

الزمان والوقت والتاريخ

تنقل بعض المدونات نصوص الأمم الأخرى، وتداولها للتاريخ بمعانٍ عدة، وهي متصلة بالزمان، فيذكر أبو الحسن علي المسعودي المعتزلي الشافعي(ت:٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) في كتابه:" أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران"الزمان بمعنى الدُنيا، ويحاول البحث عن توقيت للزمان ومدته وانقضائه، وهو يجزم بأن الأقوال التي قيلت "إنما تسمع وتذكر على ما يتعجب منه لا على جهة التصديق به."[١٨]. وهو يقدم آراء أهل الهند في الزمان وتقديراتهم له، ويذكر أن تصورات الإغريق اتكأت عليها، وهو ما ظهر في نقل بطليموس من كتاب السند هند عندما ألف كتابه المجسطي.[١٩]

ويذكر المسعودي أن أرسطو طاليس يرى أن "الزمان لا يبيد ولا ينفد، وأن الطبيعة قديمة وأن لا أول لها ولا آخر."[٢٠]، كما أن أخبار الزمان تبدأ عنده بعمر الدنيا وتنتهي بأخبار ملوك مصر بعد الطوفان، وهي مليئة بالغرائبيات والعجائب والإسرائيليات، وقد اختصر "تاريخ الزمان" في كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" وضمنه أخباره، وهو في المروج أوسع عملا وأكثر تنوعا ونزوعاً للدقة، فيذكر مصادره ويمتدح الطبري في تاريخه ويراه بأنه :" الزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب والمصنفات".[٢١]

ويبدأ كتاب المروج دون الإشارة للزمان، بل يثبت تاريخ المبدأ وشأن الخليقة، وهو في ذلك يسير على نهج من سبقه ومن أتى بعده، ومع أنه يحذر -كابن كثير فيما بعد- من الاعتمادعلى غير ما جاءت به الشريعة ونقله الخلف عن السلف[٢٢] إلا أنه يعود للأخذ بما ورد عن أهل الكتاب[٢٣]، ويظهر ذلك في الحديث عن بني إسرائيل وملوكهم.

والمسعودي بالرغم من أنه يتناول التاريخ باعتباره أحداثا لزمان منقض، إلا أنه لا يتعامل في كتابته لتاريخ الخلق والبدء والأنبياء والملوك القدامى على أنه خبر، بقدر ما تصدر الأمور عنده باعتبارها قصّاً لأحداث زمان منقض وغير مدرك.

وأبو الحسن علي بن الأثير (ت: ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) يكرر نهج الطبري ويمتدحه له، إلى حدّ أنه لم يتجاوز في النقل ما انتهى إليه الطبري، ولم يضف عما جاء من أحداث بعد زمانه، ويقول:" فلما فرغت منه -أي

عند فحص المقدمات التاريخية لنماذج من المؤرخين العرب، نجد أنهم يتعاملون مع التاريخ على أنه أحداث تجري ضمن مدة أو زمن، وهذا ما يفسر إصراراهم على البدء بمقدمات عن شكل الكون وبداية الخلق، والإجابة عن سؤال أول ما خلق الله؟

تاريخه-أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كل شيء موضعه إلا فيما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئا إلا ما فيه من زيادة بيان أو اسم انسان أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله"[٢٤]. وهو ينقل عن الطبري تعريف الزمان، ويحاول تحديد عمر الزمان، وقَدرِه عند اليهود والنصارى والفرس.

وتكمن فرادة ابن الأثير في تطويره لمفهوم الخبر، وخروجه على الصورة التقليدية له، فجعله من جهة أولى تاما بذاته ولذاته، ومن ناحية ثانية متجاوزا الحول إلى رؤية أكثر شمولاً وتكاملاً بنيت على عوامل أعطت الخبر أسبابه وجعلته يؤسس لنتائج تامة بذاتها، أو سببية لخبر آخر أو للأثنين معاً، وهو حين يكتب تاريخ ما قبل الإسلام أو بدء الخلق ينطلق من مفهوم قرآني بحت وكذلك تاريخ الأنبياء من خلال ربطهم بأحداث وآيات قرآنية، كما كان لاهتمامه بعلم الرجال والحديث أثر على تصوره للأحداث وتدوينها.

أما شمس الدين المعروف بسبط ابن الجوزي

(٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م) وهو المتأخر عن الطبري بنحو ثلاثة قرون، فيتفق مع الطبري بأن الزمان اسم لقليل الوقت وكثيره، ويزيد ذلك بقول أحد أهل اللغة وهو لإسماعيل بن حماد المعروف بالجوهري (ت: ٣٩٣ه/ ١٠٠٢م) في كتابه الصحاح بالقول:"إن الزمان عبارة عن حركات الفلك"[٢٥]، ويُفصّل ابن الجوزي في الأيام وخلق السماوات والأرض والمخلوقات، وكل ذلك عنده يندرج تحت الزمان الذي هو أيام وشهور وسنوات،[٢٦] ويعدّد شهور العرب وأيامهم[٢٧] مثلما يذكر أيام الروم وأسماء الشهور عندهم، وكذلك الفرس والقبط الذين يعتبرون يوم التاسع والعشرين من آب أول أيام السنة وأول الشهور عندهم"توت"[٢٨] وهو أيلول بالسريانية وآخر شهورها "مسري" وهو آب، و"فيه يتكامل النيل"[٢٩].

أما التاريخ عند الطبري، فهو لملوك كل زمان، وقد أوضح ذلك في خطبة كتابه بالقول:"وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء ربناجلّ جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم من انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه،من رسول له مرسل،أو ملك مسلط،أوخليفة مستخلف".

يشير وهب بن منبّه في كتابه التيجان إلى أنه قرأ ثلاثة وتسعين كتاباً مما أنزل الله على الأنبياء، فوجد أن الكتب التي أنزلها على النبيين جميعهم مئة وثلاثة وستون كتاباً

وهو يوضح مقصد كتابه،بأنه لم يدونه للاحتجاج على أسئلة ابتداء الخلق وفناء ما هو كائن وكيف يكون فناؤه، مستبعداً بذلك الإجابة عن الأسئلة التي طرحها الفلاسفة، ويقتصر بالتشديد على ذلك بالقول:"إذا لم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك بل لما ذكرنا من تاريخ الملوك الماضيين وجمل من أخبارهم وأزمان الرسل والأنبياء وتقادير أعمارهم وأيام الخلفاء السالفين وبعض سيرهم ومبالغ ولاياتهم والكائن الذي كان من الأحداث في إعصارهم".[٣٠]

وبهذا المدخل يدور تاريخ الطبري حول الأحداث في مبدأ كل رسول ونبي وملك أوخليفة ونهاية حكمه، ولا يصدر التاريخ عنده عن تأويل أو تفسير له،أي أنه سرد وقائع وأحداث. أما مطهر بن طاهر المقدسي(ت:٣٥٥ه/ ٩٦٥م) فنجد عنده نزعة عقلانية فيها تجاهلٌ لأمر الزمان، إذ حصر موضوعه في البدء والخلق، وأقوال الأمم وآراء أهل الكتاب وتوسع بشكل أكبر من الطبري بذكر كلام الفلاسفة، والمقدسي ذو معارف عامة كثيرة، وخطبته التي بدأ بها الكتاب واضحة، ويبين بها تصدي بعض العوام لمسائل لا يفقهون بها، ويأخذ على الناس تصديقهم فيقول: وإن من عظيم الآفة على عوام الأمة تصديهم لمناظرة من ناظرهم بما تخيل في أوهامهم وانتصب في نفوسهم من غير ارتياض بطرق العلم ولا معرفة بأوضاع القول ولا تحكُّك بأدب الجدل ولا بصيرة بحقائق الكلام، ثم القاؤهم بأيدهم عند أول صاكّة تصك أفهامهم وقارعة تقرع أسماعهم ضرعين

ويذكر المسعودي أن أرسطو طاليس يرى أن "الزمان لا يبيد ولا ينفد، وأن الطبيعة قديمة وأن لا أول لها ولا آخر.

خاشعين مستجدين مستقلين إلى ما لاح لهم بلا إجالة روّية.."[٣١].

ويبدأ المقدسي تاريخيه بفصل عنوانه:" تثبيت النظر وتهذيب الجدل" مع إفراده مساحة جيدة للحديث عن العقل والحواس والمحسوس وفحش الخطابة، والقياس المحض والحدود، وصفات الخالق وإثبات الرسالة وإنجاب النبوة وغيرها من الموضوعات.

ويبدو أن أبا الريحان محمد بن أحمد البيروني (ت: ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) قد استوعب الفرق بين الزمان والتاريخ بوضع الحدث من لواحق الزمان، والخبر والنظر عنده من آيات الوجود، وهو زمان فلسفي مرتبط بالمعدوم والموجود بحسب نص البيروني الذي يقول فيه: إنمّا صَدَقَ قَول القائِل "لَيسَ الخَبَر كالعَيان لأن العيانَ هو إدراكُ عينِ الناظر عينَ المنظور إليه في زمانِ وجودِه وفي مكانِ حصولِه...وتنَاول الخَبَر إياها وما قَبلها من ماضي الأَزمنة وبعَدَها من مُقْتَبلِها حتى يَعُمَ الخَبَر لِذلك الموُجود والمَعْدوُم معا . والكِتابة نوَع مِن انوْاعه يكَاد أنْ يكَون أشْرَفَ مِن غَيره..."[٣٢].

ويفترض البيروني العقل معياراً لقول الخبر ، فهو بعيد عن قبول الغرائب، لكنه غير قادر على التحرر منها، على الرغم من قوله:" إن الخَبَر عن الشَيء المُمكِن الوجُود في العَادة الَجارية يقُابل الصِدق والكَذِبَ على صُورة واحِدة وكلاِهما لاحقِان بِه من جِهة المُخبرين لتَفاوت الِهمَم وغِلبة الِهراش والنِزاع على الامُم.."[٣٣].

وفي أمر الزمان والتاريخ، يضع البيروني عنواناً مستقلاً في كتابه وهو " في ذكر المدة والزمان بالإطلاق وخلق العالم وفنائه"، ويحيلنا إلى مصطلح آخر غير الوقت والزمان ومختلف عنهما وهو "الدهر" فالزمان عنده مدة محددة، أحد الأشياء الخمسة القديمة التي عدّها من أوليات البدء والقِدم، وذلك كما نقل عن اليونان، والأشياء الخمسة القديمة، هي: البارئ ثم النفس الكلية ثم الهيولي[٣٤] ثم المكان ثم الزمان المطلقان.."[٣٥]. ويفرق بين الزمان والمدة، بوقوع العدد على إحداهما دون الآخر بسبب ما يلحق العدد به من التناهي. ويحدد فوارق المصطلحين عند الفلاسفة فالزمان "مدةٌ لها أول وآخر، وأما الدهر مدةٌ لما لا أول له ولا آخر."[٣٦]. وهناك من قال عنهم البيروني أصحاب النظر ممن يضعون الزمان والدهر في معنى واحد، ولكنه يستدرك أن البحث في هذا الأمر أعيا الفلاسفة بقوله: وهذا بحث يدق جداً ويغمض ولولا أنه كذلك لما صار فيه المختلفون في غاية التباعد.."[٣٧].

وفي القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي، يستعيد مؤرخ دمشق الشهير بابن عساكر (ت:٥٧١هـ/ ١١٧٥م) قوة الاسناد، ومرجعيته لرواية الخبر، والذي لا يختلف عن غيره ممن سبقوه في التعامل مع الزمان، الذي تعامل معه ابن عساكر بمفهوم الوقت:" الذي تحدث فيه حوادث مشهورة وعامه.."[٣٨].

أما سبط بن الجوزي (ت: ٦٥٤ه/ ١٢٥٦م) والذي اشتهر بأنه غزير المعارف ويكتب بأفق أوسع من غيره، وبمعرفة موسوعية[٣٩]. فله كتاب حملّ عنواناً دالاً على مبتغاه وهو "مرآة الزمان" ويحدد عنوان الفصل الأول بـ" معرفة التاريخ" ويقول: قرأت على شيخنا العلامة أبي اليُمن زين بن الحسين الكندي اللغوي رحمه الله تعالى بدمشق في شهور سنة أربع وستمائة كتاب" المعرّب في الكلام الأعجمي" تأليف شيخنا أبي منصور موهوب بن احمد بن محمد الخضر المعروف بابن الجواليقي، وقرأت عليه الكتاب جميعه وقرأه على مصنفه، قال: يقال: أن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض، وإنّ المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب وتاريخ المسلمين أرخ من سنة الهجرة، ويعود بنا ابن الجوزي لأهل اللغة الذين عدّوا التاريخ تعريفاً للوقت، و"التوريخ" مثله، وهذا رأي الجوهري في الصحاح، ويستند أيضاً إلى رأي أبي الفرج قدامه بن جعفر الكاتب في كتابه الخراج فيقول: إن تاريخ كل شيء آخره، فيؤرخون بالوقت الذي فيه حوادثه مشهورة.[٤٠]

ويلاحظ أن ابن الجوزي يربط التاريخ بالمواقيت ثم يذهب لذكر ابتداء التاريخ عند الأمم السالفة، وأنه عند المسلمين بدأ بزمن عمر بن الخطاب حين حدد الهجرة بداية له، وهو يرى أن التاريخ يُبين كذب الرواة من صدقهم، ويروي عن حفص بن غياث قوله:إذا اتهمتم الشيخ فحاسبوه بالسنين، احسبوا سِنَّه وسنّ من كتب عنه، وقال حماد بن زياد: لم يُستعن على الكذابين بمثل التاريخ"[٤١]. وفي ذلك تضعيف للتاريخ وعلميّته وللمشتغلين به.

تدرج في غياب تاريخ بدء الخليقة

بدأت في مع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي[٤٢] مدونات التاريخ تتحرر قليلاً من تقليد البدء في أمر تاريخ الخلق وأولياته، ولا نعرف إن كان التحلل من ترسيمات الكتابة التاريخية التي اعتادت البدء بسرد تاريخ الخلق سببه إدراك المؤرخ العربي لوجوب كتاب التاريخ بسياقة وزمانه وحوادثه، أي أن نقل الحوادث صار مقترناً بالحادثات وتعيينها الزماني.

فلا يحضر تاريخ البدء وأول الزمان عند شمس الدين الذهبي(ت: ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) الذي رتب تأريخه على حوادث السنيين مقررا مسبقا أنه يبدأ بالأخبار والوفيات والحوادث الشهيرة فيقول:"..وبعد فهذا تاريخ مختصر على السنوات أذكر فيه ما قدر لي من أشهر الحوادث والوفيات مما يتعين على الذكي حفظه ويتحتم على العالم إحضاره..."[٤٣]. كما أن الذهبي يرتب تاريخه حسب السنين، فالسنة الأولى من تاريخه هي الأولى من الهجرة : "..فيها هاجر النبي إلى المدينة. فقدمها

والمسعودي بالرغم من أنه يتناول التاريخ باعتباره أحداثا لزمان منقضٍ، إلا أنه لا يتعامل في كتابته لتاريخ الخلق والبدء والأنبياء والملوك القدامى على أنه خبر، بقدر ما تصدر الأمور عنده باعتبارها قصّاً لأحداث زمان منقضٍ وغير مدرك.

يـوم الاثنيـن ضحى، لاثنتي عشـرة خلت من شـهر ربيع الأول، فنـزل بهـا وبنـى مسـجدها وأقام بهـا ثلاثا. وفيها

أما التاريخ عند الطبري، فهو لملوك كل زمان، وقد أوضح ذلك في خطبة كتابه بالقول:"وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء ربناجلّ جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم من انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه،من رسول له مرسل،أو ملك مسلط،أوخليفة مستخلف".

توفـي: البراء بـن معرور أحد النقبـاء وأول من بايع النبي ليلة العقبة. وأبو أمامة أسعد بن زرارة بالذبحة. وكان من سـادة الأنصار ومن رؤسائهم الأبرار، ومن بني مالك بن النجار." وفي السـنة الثانية للهجرة "كانت غزوة بدر يوم الجمعة سـابع عشر من رمضان. فاستشهد من المسلمين أربعة عشـر، وقتل مـن الكفـار سـبعون..."[٤٤]. وهكذا يدور تاريخه على ما هو منقول وثابت عند من سبقوه.

وسـار ابن كثير (ت:٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) على نهج من سـبقه، وهو عالمي التصور[٤٥]مع رفضـه لقبول الأخبار التـي لا يقرها الشـرع، مبتدئا بذكر مبـدأ المخلوقات من خلـق العـرش والكرسـي والسـموات "والأرضيـن وما فيهما وما بينهن وما جرى من ذلك إلى أيام بني إسـرائيل وأيـام الجاهليـة حتـى تنتهي النبـوة إلى أيـام نبينا محمد صولات الله وسلامه عليه.."[٤٦].

ويفيـض ابن كثير في اسـتخدام القص القرآني، وهو يعتبـر أن ما دونه بالاعتمـاد على القرآن هو ما يمكن نقله لأنه يحمل الفائـدة، لذلك، ترك ما لا فائد فيه، والذي لا فائـدة فيه عنده هـو" مما قد يتزاحم علـى علمه ويتراجم فـي فهمه طوائف من علماء أهل الكتاب مما لا فائدة فيه لكثير من الناس.."[٤٧].

ومع كل ما أوردناه، فإن الكتابة التاريخية، ظلت وفيه عند العـرب لصفة التتابع والمتصل مـن الأزمان، إذ ثمة إصـرار على تراتـب الزمـن، لتنتهي كل الأزمنة السـابقة منـذ بـدء الخلـق، إلى زمـن الإسـلام والنبـوة. وبالرغم من تقدم الكتابة التاريخية في القرون السـادس والسـابع والثامن الهجرية، حيث بدت علائم التوسع والتحرر من مفهـوم الزمان التقليـدي واضحة، وصارت أقـل التزاماً عند المؤرخين، لكن أي عملية كتابية تاريخية ظلت وفية لتـراث الطبري المؤسـس لكتابة بدء الخلـق والمعمورة وأخبـار الأنبيـاء والملوك، وظـل الزمان معرفـاً بالوقت الذي تنضبط به الأحوال.

أمـا ابن خلـدون (ت:٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م) الـذي عدّ مجـدداً في الكتابـة التاريخية فقد أخذ أخبـار بدء الخلق والزمـان مـن خـارج الدائـرة العربيـة، وكان واضحاً في طلب التيقن والتثبت من الروايات على أسـاس المطابقة فيقـول: "أمـا الأخبار عـن الواقعات، فلا بـدّ في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة.."[٤٨] وهو يضيف ما يؤكد خروجـه على أبناء جلدته من المؤرخيـن العرب بقوله : اعلـم أنه قد تبين في كتب الحكمـاء الناظرين في أحوال

العالم أن شكل الأرض كروي وأنها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبة طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها. وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض، وليس بصحيح، وإنما التحت الطبيعي قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها، والكل يطلبه بما فيه من الثقل، وما عدا ذلك من جوانبها...".[٤٩]

وهو في ذلك يشير إلى ما أورده بطليموس والشريف الإدريسي عن شكل الأرض وعمارة الدنيا، بقوله:"ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل: بطليموس في كتاب الجغرافيا، وصاحب كتاب روجار من بعده، قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية في العرض مختلفة في الطول..".[٥٠]

وتعتمد رواية ابن خلدون عن البدء والخلق وشكل الأرض مصادر جغرافية بالدرجة الأولى، ولا تذهب وراء الإسرائيليات، وهو يختصر التفصيل في هذا الأمر ويحيل قارئه إلى مصادر وكتب الجغرافيين من العرب وغيرهم، بقوله:"..وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه، والشريف في كتاب "روجار"، وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية، واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله."[٥١]

وشهد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي تحولاً حقيقياً في مفهوم التاريخ من حيث التناول والاختصاص في الموضوعات وفي العلاقة مع الزمان، حيث قلّت العناية بالزمان الأول أو المقدس في كتابة التاريخ وفي اختيار موضوعاته، وذلك في الاتجاه إلى ما ذهب إليه الكافيجي(ت:٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م) بالميل في اختصاص التاريخ إلى شيء من الاجتماع الإنساني "كظهور ملة"، وفي تعريف السخاوي الذي شهد النهايات الوسيطة لحركة التاريخ الإسلامي والعربي، تأكيداً على تغيير في الاختصاص والموضوعات، مع التوكيد على الزمان وصلته العتيدة مع التاريخ الذي هو حوادث وأخبار.

وإذ أكدّ السخاوي في مرافعته عن علم التاريخ، ارتباطه بالزمان، باعتباره:" الإعلام بالوقت" أو "تعيين لزمان"[٥٢] إلا أنه أيضا أخذ يميل إلى أن التاريخ يقترب من الحركة الاجتماعية للأمم بشكل أكبر من مجرد الإخبار عن وقت أو تحديد مدة، وفي ذلك تحرير للتاريخ من كونه مجرد علم منقول كسائر علوم الشريعة. لكن السخاوي بعد أن يؤكد صلة الوقت بالتاريخ، يُلحق بتعريف التاريخ اصطلاحاً يجعله قابلاً للإضافة والاتساع في الاختصاص بقوله:" وفي الإصطلاح تعريف للوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة... ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع

وقال حماد بن زياد: لم يُستعن على الكذابين بمثل التاريخ" . وفي ذلك تضعيف للتاريخ وعلميّته وللمشتغلين به.

الجليلة من ظهور ملة وتجديد فرض وخليفة ووزير وملحمة وحرب".[٥٣]

فهو وإن مثّل بدء مرحلة الانتقال بين العصور الوسطى والحديثة، وشهد انتقال اختصاص التاريخ من مجرد تاريخ يالحوادث الماضية وأخبار الأمم، إلا أنه لا يُفوت الفرصة لكي يدخل التاريخ في حركة المجتمعات، بإخباره عن الأجيال والملل، لكن هذه المسحة الاجتماعية لم تفصل التاريخ عنده تمام الفصل عن التاريخ المقدس، فهو يؤكد على أن التاريخ:" ربما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء وغير ذلك من أمور الأمم الماضية."[٥٤]. لكن في مرحلة تالية من القرن الثاني عشر للهجرة / الثمن عشر الميلادي سيتأكد الفصل أكثر وضوحا في الزمن العثماني بين تاريخ البدء والخلق والتاريخ الراهن أو حوادث المجتمعات والسنين الفواجع وخير ما يعبر عن ذلك المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي.

القطيعة مع الزمن المقدس

قد تكون الكتابة التاريخية في العصر العثماني ١٥٦١-١٩١٨ بمجالها العربي قد تحررت من النظرة للتاريخ على أنه مجرد عظة، أو سرد منقول، أو تثبيت

بدأت في مع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي مدونات التاريخ تتحرر قليلاً من تقليد البدء في أمر تاريخ الخلق وأولياته

للحوادث الجسام. ذلك أن مفاهيم الأمة والرسالة قد تحققت مسبقاً، وعبرت عنها مدونات مختلفة واتجاهات تأريخية، ويبدو أن نهاية الدور العربي في الحكم وانتقال المُلك للاتراك قد أثّرا بشكل مباشر في تلك المرحلة، فنمت الكتابة عن التاريخ المحلي، لكنها في ذات السياق ألمحت إلى تجاهل المؤرخ أحيانا للزمان، وأظهرت مقدرة عالية في ترك الأخبار وعدم تدوينها، بالرغم من الإصرار على أهمية التاريخ ووجوب العناية به.

وفي مقدمة الفحص لمدونات التاريخ العائدة للزمن العثماني، يمكن البدء بإشارة مفاهيمية لعلم التاريخ، إذ إنه وعلى ما يبدو قد تحرر من الماضي السحيق أو الزمان الأول، فنجد حضورا جديدا للتاريخ المرتبط بالوقت المعاصر لتاريخ كاتبه، فاللافت في هذا العصر تراجع تدوين التاريخ المقدس أو بدء الخلق وبعث الانبياء والرسل إلى مستوى ثانٍ، بعد الاهتمام بتاريخ الحاضر واحوال الطوائف والتراجم واليوميات، كما دخل في موضوعه كعلم إلى جانب أحوال الأنبياء، الاهتمام بالأشخاص العاديين والسفراء والعلماء والحكماء والمجاذيب وشيوخ الطرق، وهو ما عبر عنه أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده(ت:٩٦٨هـ/ ١٥٦١م) في مفهومه للتاريخ[٥٥]، وفي فائدة العلم بالتاريخ التي جعل على رأسها " حصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن".[٥٦]

أما مصطفى جلبي بن عبد الله القسطنطيني الشهير بحاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م) وإذا كان توفي

قبل طاش كبرى زاده إلا أنه يقتبس منه، فقدم فهماً للتاريخ واتصاله بالزمان، لا يختلف عن سابقه أحمد طاش كبري زاده، ويحيلنا في تعريفه للتاريخ إلى كتاب مفتاح السعادة، ويعبر بشكل صريح عن فهمه للتاريخ وارتباطه بالزمان، إذ يقول في مصنفه كشف الظنون:"التاريخ في اللغة تعريف الوقت مطلقا يقال: أرخت الكتاب تاريخاً، وورختـه توريخاً...وهو تعيين وقت لينسب إليه زمان يأتي عليه أو مطلقا يُعنى، سواء كان ماضيا أو مستقبلاً، وقيل تعريف الوقت بإسناده إلى أول حدوث أمر شائع من ظهور ملة أو دولة أو أمر هائل من الآثار العلوية والحوادث السفلية مما يندر وقوعه، جعل ذلك مبدأ لمعرفة ما بينه وبين أوقات الحوادث والأمور التي يجب ضبط أوقاتها في مستأنف السنين، وقيل عدد الأيام والليالي بالنظر إلى ما مضى من السنة والشهر وإلى ما بقى. وعلم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع اشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك. وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم. والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية. وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع. وهذا العلم كما قيل عمر آخر للناظرين والانتفاع في مصره بمنافع تحصل للمسافرين كذا في مفتاح السعادة ".[٥٧]

ومع دخول العثمانيين المنطقة العربية عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، أخذت كتابة التاريخ منحىً جديداً[٥٨]، إذ بدا جلياً التحرر من الماضي، والعناية بتدوين الحاضروالمباشر من الأحداث، وصار هناك قطيعة مع الماضي، وذلك ما تكشفه الصورة الأولى في تاريخ الوصول العثماني لبلاد الشام، والتي تأتي من مؤرخ قلما اهتم الباحثون به، وهو الدمشقي احمد بن محمد بن عمر الأنصاري الشهير بابن الحمصي(٨٤١-٩٣٤هـ/ ١٤٣٧-١٥٢٧م) وهو واحد من أربعة مؤرخين اهتموا بتدوين حدث الدخول العثماني للمنطقة العربية وبخاصة في بلاد الشام ومصر، وهم محمد بن طولون الصالحي (ت: ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م)[٥٩] ومحمد بن إياس (ت: ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م) وابن زنبل الرمال (ت: بعد ١٥٥٢م) في مصر.

يقدم ابن الحمصي تاريخاً منضبطاً بأحداث السنين، ولكن ما يميزه عن ابن زنبل أنه يمتلك وعيا للكتابة التاريخية ولمفهومها، وذلك حسب ما ظهر في مقدمته التأريخية. بقوله" وبعد فعِلم التاريخ جليل المقدار، عظيم الأخطار.."[٦٠]، وهذه النماذج كلها تكتب التاريخ من حيث بداية عملها بالكتابة، ولا تعود للماضي السحيق في كتابة التاريخ أو أنها لا تشدد على صلة وصل

الكتابة التاريخية، ظلت وفيه عند العرب لصفة التتابع والمتصل من الأزمان، إذ ثمة إصرار على تراتب الزمن، لتنتهي كل الأزمنة السابقة منذ بدء الخلق، إلى زمن الإسلام والنبوة.

أما ابن خلدون (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٦م) الذي عدّ مجدداً في الكتابة التاريخية فقد أخذ أخبار بدء الخلق والزمان من خارج الدائرة العربية، وكان واضحاً في طلب التيقن والتثبت من الروايات على أساس المطابقة

بين تاريخ آل عثمان ومن سبقهم من الأمم الاخرى.

ويدون "قطب الدين النهراولي" المتوفى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢ في كتابه "البرق اليماني" تاريخ بلاد اليمن في القرن العاشر الهجري[٦١]، وفيه يبدو واعياً لحدث وصول البرتغال للهند، ومع أنه كان يكتب تاريخ اليمن إلا أنه كان يعي معنى وصول البرتغال للمنطقة العربية، إذ يقول: "وقع في أول القرن العاشر، من الحوادث الفوادح النوادر، دخول (الفرتقال) اللعين، من طائفة الفرنج الملاعين لديار الهند وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر ويلجون في الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القُمر وهي مادة في أصل بحر النيل ويصلون للمشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق.. في مكان تتكسر فيه السفن ولا ينجو منهم أحد.."[٦٢].

ومع أن الصفات الموضوعية لنص النهروالي تحيله إلى مجرد خبر تاريخي، إلا أن السؤال الذي يُطرح هو قصد النهروالي البدء بزمانه، وبالحدث الجلل الذي مثله وصول البرتغال للمنطقة، وهل عنده وعي تاريخي لذلك الحدث؟ وهل يمكن تلمس إدراك الزمان بحاضريته بدون العودة للزمن المقدس من نظام السرد نفسه الذي اتبعه أسلافه؟ وهل نتج عن الحدث وعيٌ بزمنية اللحظة التي كانت تمر بها الأمة؟ أم التدوين بتلك البداية مثّل شكلاً من أشكال ذلك الوعي، الذي يحيلنا في الأزمنة الحديثة إلى سعي وقصد في الحفاظ على أخبار الزمان الذي عاشه المؤرخون حتى لو كان من نوع "الحوادث الفوادح النوادر" كما عبر النهروالي مسبقاً؟

وفي القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي يقدم بريك الدمشقي وابتداءاً من عام ١١٣٣هـ/ ١٧٢٠م قام الخوري ميخائيل بريك الدمشقي (ت: بعد ١١٩٥هـ/ ١٧٨٢م)، بتدوين أحداث وأخبار دمشق وتأريخها، منطلقا من وعيه بالزمان وارتباط أحداث زمانه بظهور حكم عائلي، وبالرغم من اسلوب البسيط ولغته التي لا تخلو من ركاكة في التعبير[٦٣]. إلا أنه عبر عن نظرة للزمان بما هو حدث سياسي، إذ أخبر أن دافعه لكتابة هذا التاريخ أسباب ثلاثة أولها: بداية وعية للأحداث التي شاهدها وتحقق من ثبوتها، وثانيها: لأجل أن هذا الزمان ظهر فيه طائفة من بيت العظم وصاروا حكاماً لدمشق، وأخيراً لأنه في عصره ظهر "النزاع بين النصارى على مذهب الكاثوليكية وابتدأ ينمو كسنبل الحنطة".[٦٤]

الزمن وإسقاط الحوادث

يغيب الزمان بالمعنى الناقل للأحداث في بعض المدونات التاريخية التي تعود للعصر العثماني، وأحياناً تسقط الأحداث من تواريخ الحوليات، وذلك نجده في

وشهد القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي تحولاً حقيقياً في مفهوم التاريخ من حيث التناول والاختصاص في الموضوعات وفي العلاقة مع الزمان، حيث قلّت العناية بالزمان الأول أو المقدس في كتابة التاريخ وفي اختيار موضوعاته

عدة نماذج منها الجبرتي في مقدمته لكتاب "عجائب الآثار"[٦٥]. وابن الحمصي في "حوادث الأقران"[٦٦] وغيرهم[٦٧]، حيث تقدموا للكتابة بوعي وإدراك يتجاوز تعريفات مؤرخي العصور الوسطى وفهمهم التي جعلت التاريخ إخباراً عن الماضي وبحثاً في أحوال الزمان وحسب.[٦٨]

لكن في العناية بالتاريخ، كان لافتاً في أعمال بعض المؤرخين، تخليّاً عن الكتابة والتدوين في بعض الشهور والسنين، وذلك نجده عن ابن كنّان الصالحي (ت:١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م) إذ أنه يمر على شهور عدة في سنة ١١١١هـ/ ١٦٩٩ وهي من أهم سنوات تاريخ الدولة العثمانية التي وقعت بها الدولة العثمانية معاهدة كارلوفتس التي وقعتها العام ١٦٩٩م، وتنازلت فيها لأول مرة عن أراض تابعة لها لدول أوروبية، ويقول في بعض الشهور:" لم يقع فيه ما يؤرخ"، هذا الصمت لا يحيلنا إلا إلى تأويل واحد، وهو ابتعاد المؤرخ عن إكراهات الزمان، وتجاوزه، فاكتفى في بعض السنين بالعزوف عن تفصيل أحداثها، باعتبار ما حصل فيها من عسف وجور، سبباً لذلك التجاهل كما يقول الجبرتي في أحداث سنة ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م:" لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم واتخد مراد بك الجيزة سكناً وزاد في عمارته واستولى على غالب بلاد الجيزة بعضها بالثمن القليل وبعضها غصباً وبعضها معاوضة واتخذ صالح آغا أيضاً له داراً بجانبه وعمرها وسكنها بحريمه ليكون قريباً من مراد بك..".[٦٩]

وتبدو انطلاقة الجبرتي في الكتابة التاريخية من إحساس بأزمة زمانه ووعيه بها، والتي جعلته يكره أحياناً الكتابه عنها، إذ لا يفوت الجبرتي بعد عام من هذا التاريخ ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م أن يشدد عن أن الأخبار التي تستحق التقييد ويُعتنى بها، لم تحدث، غير أنه لا ينسى أن يُذكّر بالظلم وجور الأمراء[٧٠]، ولعل ذلك ما ألجأه إلى التعبير عن حوادث سنتي ١٢١١ -١٢١٢هـ/ ١٧٩٦-١٧٩٧م بتجاهل ضبط حوادثها؛ لأنها في وعية لا تحمل من الحوادث ما يستحق الذكر، وهما العامان الممهدان لوصول الحملة الفرنسية لمصر.

يقول الجبرتي في كتابته عن حوادث "سنتي إحدى

قد تكون الكتابة التاريخية في العصر العثماني ١٥٦١-١٩١٨ بمجالها العربي قد تحررت من النظرة للتاريخ على أنه مجرد عظة، أو سرد منقول، أو تثبيت للحوادث الجسام.

ومع أن الصفات الموضوعية لنص النهروالي تحيله إلى مجرد خبر تاريخي، إلا أن السؤال الذي يُطرح هو قصد النهروالي البدء بزمانه

عشرة واثنتي عشرة ومائتين وألف": لم يقع فيهما من الحوداث التي تتشوف لها النفوس، أو تشتاق إليها الخواطر فتقيد في بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه من أسباب نزول النوازل وموجبات ترادف البلاء المتراسل ووقوع الإنذارات الفلكية، والآيات المخوفة السماوية وكلها أسباب عادية وعلامات... فمن أعظم ذلك حصول الخسوف الكلي في منتصف شهر الحجة ختام سنة اثنتي عشرة بطالع مشرق الجوزاء المنسوب إليه إقليم مصر وحضر طائفة الفرنسيس إثر ذلك في أوائل السنة التالية كما سيأتي خبر ذلك مفصلا إن شاء الله تعالى".[٧١]

أما السنة التالية التي شهدت وصول الحملة الفرنسية لمصر، فقد عدّها الجبرتي سنة جديرة بالتاريخ،وترك الصمت وعاد للتدوين لأنها كما يقول:"وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالي المحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ...بمصر حصل بها اللغط الكثير من الناس وتحدثوا بذلك فيما بينهم وكثرت المقالات والأراجيف ...".[٧٢]

إن مقولة الجبرتي "اختلال الزمن والمقالات والاراجيف" تعكس قضية استقبال حلمة نابليون في الفكر التاريخي العربي[٧٣]، وما عبر عنه النهراولي سابقاً في وصف وصول البرتغال للمنطقة مع مطلع القرن السادس عشر واصفاً الحدث الذي عاصره بأنه من نوع "الحوادث الفوادح النوادر"، يعبران عن موقفين يشيران إلى أن المؤرخ العربي في العصور الحديثة ظل أسير الأحداث والأهوال، والكتابة عما كان يراه مستحقا للتدوين من أخبار زمانه، وهذا لا يشير إلى تبدّل في دوافع بالكتابة التاريخية، بقدر ما يلمح إلى انتقائية الأحداث وفق ما سماه الجبرتي "الحوداث التي تتشوف لها النفوس، أو تشتاق إليها الخواطر فتقيد في بطون الطروس"، فالجبرتي كان واعياً بأنه يكتب المحن التي أدركها، أي المعاصرة له، وهو ما استدعى الانتقاء، لكنه لم يعتذر عن سوابق سمعها، من أفواه من التقاهم.[٧٤]

سطر الجبرتي تاريخ زمانه الذي وعاه، وأسقط ما أراد واستطرد بالوصف لما وجد أنه يقابل هواه، قائلاً:" أمور شهدناها ثم نسيناها وتذكرناها، ومنها

يغيب الزمان بالمعنى الناقل للأحداث في بعض المدونات التاريخية التي تعود للعصر العثماني، وأحياناً تسقط الأحداث من تواريخ الحوليات

أمور تعقلناها وقيداناها وسطرناها"[٧٥] لكن الجبرتي لم يسوّغ صمته واختصاره للسنوات المهمة التي سبقت وصول الفرنسين لمصر، وهو في إصراره على تفسير الأحداث الأرضية بربطها بإنذارات فلكية، يُخرج التاريخ من واقعيته وعلميته التي كان يسعى مؤرخو تلك العصور الحديثة إلى إثباتها أو تأكيدها، فكان يتلمس طريقاً في التعليل والتفسير للملاحم العظيمة والمحن بشيء من الخيال والغيب، الذي جعل الحاضر الثقيل بأهواله واختلال زمانه، هو نوعاً من الحساب والجزاء السماوي لكل ما هو أرضي نتيجة لغياب العدل وانتشار الظلم والفساد.

الخلاصة

لم تقصد الدراسة تقصي كل المدونات التاريخية العربية في زمن يمتد لقرون، بل كان لها أن تبحث عن سؤال الزمان والتاريخ فقط، وكيف حدث الانتقال في الكتابة، من البدء بكتابة تاريخ الخلق، إلى البدء بتاريخ الحاضر ومن ثم الانتقال إلى أحداث الحياة اليومية والمحن وظهور الملل وانتقال الممالك، وبحسب ما جاء من قراءة لعدد من المدونات التاريخية التي اعتمدتها الدراسة نموذجاً للفحص، فقد وجدنا أن البدايات في التدوين تشير إلى وجود تاريخ جاهز للدنيا، عند المؤرخ المسلم، وهو منقول عن أخبار الأمم الأخرى، وهو ما أمكن التحصل عليه من خلال إطلاع المؤرخ العربي على مصادر أممية سابقة من هندية وفارسية ويونانية أو كتب مقدسة وألواح وصحف شكلت في مجلمها المعرفة التاريخة لهم.

لكن هذا التاريخ الجاهز الذي يُقدم الزمان في سياقه الأسطوري، والمليء بالغيبيات والإسرائيليات، كان يشهد حالة من النضوب مع تقدم الزمان وصولا إلى غيابه، إذ بدت المدونات التاريخية جاهزة مع مرور الوقت للتخلي عنه لصالح الابتداء بالزمان المثبت أو الذي يعيه كاتبه، لكن كتابة التاريخ التي فصلت بين الزمان والأحداث والأخبار النوادر والمحن، ظلت قادرة على أن تسقط الأحداث من الزمان، كما أنها ظلت في كثير من المناسبات تجد بالأحداث الجسام سبباً للتدوين، أو بداية له.

وإذ كانت الأمثلة ممكنة في النهاية لتجسيد التخلي عن البدء بسؤال الخلق، فلنا أن ننظر في تاريخين، تقَدّم الحديث عنهما وهما تاريخ الجبرتي، وتاريخ ابن الحمصي، واللّذين يبدأ كل منهما تاريخه بما وعاه وأدركه، فقد بدأ ابن الحمصي تاريخه المسمى "حوداث الزمان"، بمقدمة مقتضبه بين فيها عِظم علم التاريخ وجلال قدره بين العلوم، وكان مدخل الحديث عنده أخبار سنة ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م وفيها يبدأ بالقول:" استهلت وسلطان مصر والشام والحجاز: السلطان الملك الظاهر جقمق، كان كثير المحبة لأهل العلم والقرآن والصلحاء

وتبدو انطلاقة الجبرتي في الكتابة التاريخية من إحساس بأزمة زمانه ووعيه بها، والتي جعلته يكره أحياناً الكتابه عنها

والفقراء والنساخ.."[٧٦]

وبدأ الجبرتي تاريخه، مبيناً أنه كان سوّد أوراقاً في حوادث القرن الثاني عشر وما يليه من أوائل القرن الثالث عشر الهجري بقوله:"جمعت فيها بعض الوقائع اجمالية وأخرى محققة تفصيلية وغالبها محن أدركناها وأمور شاهدناها.."[٧٧] وبعد أن يشرح حال التاريخ ويحدد صفات الحاكم العادل، ويسرد الخلفاء والدول وملوك مصر، يبدأ التاريخ عنده باحداث سنة ١١٠٦هـ/ ١٦٩٤م ومفتتح الحديث عنده يبدأ بقوله:" وقصر مدّ النيل تلك السنة وهبط بسرعة فشرقت الأراضي ووقع غلاء وفناء وفي شهر ذو الحجة سافر أناس من مكة لدار السلطنة وشكوا من ظلم الشريف.."[٧٨]

تلك البدايات توحي بأن ثمة فراقاً حصل بين الزمان المقدس أو زمن البدء والمدونات التاريخيه، إذ صارت أحوال الناس وأخبار المجتمع هي التي تقود المؤرخ للكتابة عن حوداث زمانه، وصارت المدونات ترصد

سطر الجبرتي تاريخ زمانه الذي وعاه، وأسقط ما أراد واستطرد بالوصف لما وجد أنه يقابل هواه

حركة المجتمع يومياً وشهرياً وسنوياً، وتتعامل مع الأحداث في المجتمع وحدة واحدة، كما في تاريخ اليوميات وأخبار الحوليات، ولكن الربط بين الزمن الأرضي المعبر عنه بالحوادث، والدهر الذي يقلب الناس وتصيبهم نوائبة وسهامه مسبوقا بالإنذارات السماوية من ظواهر فلكية، كان يحمل دلالة على أن شيئا ما لا يحدث بدون تدخل من مملكة السماء، وهو تبرير لجأ إليه المؤرخون بشكل يجعل وجود الغيبيات والظواهر الفلكية ملاذاً من أجل استخدامها في تبرير وتفسير الحوادث والأهوال.

الهوامش

مهند مبيضين، أستاذ مشارك في التاريخ العربي الحديث في الجامعة الأردنية، عمل سابقاً أستاذاً مشاركاً في التاريخ والحضارة في جامعة فيلادلفيا منذ عام ٢٠٠٤، وصدر له من الكتب "**أهل القلم في دمشق في النصف الأول من القرن الثامن عشر**"(٢٠٠٥). و"**فكرة التاريخ عند العرب في العصر العثماني**" (٢٠٠٦)، و"**الفكر السياسي الإسلامي والإصلاح: التجربتان العثمانية والإيرانية**"(٢٠٠٨)، و"**ثقافة الترفيه والمدينة العربية في الأزمنة الحديثة: دمشق العثمانية**"، (٢٠٠٩)، و"**أنس الطاعة: السياسة والسلطة والسلطان في الإسلام**"، (٢٠١٢).

١ حول وهب بن منبّه وثقافته وأسلوبه انظر: عبد العزيز الدوري، نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، الأعمال الكاملة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧، ص٢٣، ص٨٩-٩٨.

٢ وهب بن منبّه، كتاب التيجان، مركز الدراسات والبحوث، صنعاء، الجيل الجديد ناشرون، صنعاء، ط٢، ٢٠٠٨، ص١٦.

٣ انظر: رضوان سليم، نظام الزمان العربي، دراسة التاريخيات العربية-الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص٣٥.

٤ ابن كثير، البداية والنهاية، ج١، ص٦.

٥ الكافيجي، محمد بن سليمان (ت:٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)، المختصر في علم التاريخ، تحقيق محمد كمال الدين،عالم الكتب للنشر، بيروت، ١٩٩٩، ص٥٤٨.

٦ حول تطور المفهوم، انظر: عزيز العظمة، الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٣، ص٨.

٧ الخوارزمي، محمد بن موسى (ت: بعد ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م) مفاتيح العلوم، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٩، المقالة الأولى، الباب السادس.

٨ ابن حزم الظاهري الأندلسي (ت.٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) رسالة مراتب العلوم، في: رسائل ابن حزم، لمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط.٢، ١٩٨٧م، ٧٩/ ٤.

٩ حول تطور الفكر التاريخي في الغرب الحديث انظر: وجيه كوثراني تاريخ التأريخ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسالت، الدوحة، ط١، ٢٠١٢ ص١٤٣-١٧٥.

١٠ الدوري، مصدر سابق، ص ٨٩.

١١ وهب بن منبّه، التيجان، ص١١.

١٢ وهب بن منبّه، التيجان، ص ١٢-١٤.

١٣ حول الطبري وبدايات الكتابة التاريخية وتطرها انظر: طريف الخالدي، فكرة التاريخ عند العرب، من الكتاب إلى المقدمة، ترجمة حسني زينه، دار النهار، ط١، ١٩٩٧، ص١٠٧،٥٦،٥٥-١١٦.

١٤ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك،تحقيق، محمد ابو الفضل ابراهيم، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧. ص٩. والصرام ليس وقتاً واحداً، وهو ما يشير إليه ابن الأجدابي، بقوله:" وعند ذلك يقطف ويؤكل الرطب، ويبلغ النخل بالحجاز، ويصرم بعُمان.." ابي اسحق ابراهيم بن اسماعيل الطرابلسي(توفي نحو:٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م) الأزمنة والأنواء، تحقيق عزة حسن، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٤. ص١٧١.

١٥ الطبري، تاريخ، ج١، ص ١٩.

١٦ الطبري، تاريخ، ج١، ص١٩. ينهج غالب المؤرخين بتحدي عمر الدنيا بستة آلاف عام استنادا لجملة من الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه وسلم، انظر الطبري، تاريخ، ج١؛ ابن عساكر، علي بن الحسن (ت: ٥٧١هـ/ ١١٧٥م) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق، محب الدين العمروي، دار الفكر،بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص٢٨-٣٦.

١٧ يقول الطبري:" وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرٌ يدل على صحة قول من قال أن الدنيا كلها ستة آلاف سنة، الطبري، تاريخ، ج١، ص١٧.

١٨ المسعودي، أخبار الزمان، ص٣١.

١٩ كتاب المجسطي، اسمه الأصلي باليونانية μαθηματικσύνταξι والتي تلفظ **ماثماتيكا سينتاكسيس** وتعني **الأطروحة الرياضية** هو كتاب في الفلك والرياضيات وعلم الإسطرلاب والآلات النجومية، ألفه العالم الإغريقي بطليموس عام ١٤٨م في الإسكندرية ويعتقد أنه أقدم كتاب معروف في الفلك. لقي عناية عند علماء العرب ومنهم يحيى بن خالد البرمكي وترجمه للعربية حنين بن إسحاق ومن الترجمة العربية تم ترجمة الكتاب إلى اللغة اللاتينية ثم إلى بقية اللغات الأوربية. انظر: ابن النديم، محمد بن إسحاق(ت:٤٣٨هـ/ ١٠٤٧م)، الفهرست، تحقيق ايمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان، لندن، ٢٠٠٩، المجلد ٢، القسم الأول، ص٢١٤.

٢٠ المسعودي، أخبار الزمان، ص٣٢.
٢١ المسعودي، مروج، ج١، ص١٦.
٢٢ المسعودي، مروج، ج١، ص٣٧
٢٣ المسعودي، مروج، ج١، ص٤٠.
٢٤ يقول ابن الأثير في حق الطبري وتاريخه:" إذ هو المعول عند الكافة عليه، والمرجوع عند الاختلاف إليه.." ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت،١٩٧٩، ج١، ص٣.
٢٥ ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج١، ص١٣.
٢٦ ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج١، ص١٣.
٢٧ حول الشهور والأيام عند العرب، انظر: الفراء، أبي زكريا يحي بن زياد (ت:٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) الأيام والليالي والشهور، تحقيق إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٩-٢٢.
٢٨ بحسب ما تشير إليه البرديات العربية، فإن هذا الاستخدام ظل في مصر مسمتر حتى القرن الرابع الهجري، وكان الحسابات الزراعية تبدأ به: انظر:أدلوف جروهمان، أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٤، السفر الساس، ص٧، وفي النص:" ما لمحمد بن علي عند حسن بن مرقور من الغنم في رجب وهو أول يوم من توت سنة سبعة عشرة وثلاثمائة..".
٢٩ ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج١، ص١٤.
٣٠ الطبري، تاريخ، ج١، ض١٢-١٣.
٣١ المقدسي، البدء، ج١،ص١-٢.
٣٢ البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت: ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطابع مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٩٥٨م، ص١٢.
٣٣ البيروني، تحقيق ما للهند، ص٢٣.
٣٤ الهيولي: لفظ يوناني بمعنى الأصل المادة، وفي الاصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفعال، محل للصورتين الجسمية والنوعية". انظر: الجرجاني، علي بن محمد(ت:٨١٦هـ/ ١٤١٣م) كتاب التعريفات، مكتبة لبنان بيروت، ١٩٨٥، ص١٣٨. ويتحدث الجرجاني عن لوح رابع هو لوح الهيولي: وهو القابل للصور في عالم الشهادة، انظر: التعريفات، ص١٠٥.
٣٥ البيروني، تحقيق ما للهند، ص٢٧١.
٣٦ البيروني، تحقيق ما للهند، ص٢٧١.
٣٧ المصدر السابق، ص٢٧١.
٣٨ ابن عساكر، تاريخ، ج١، ص٢٤.
٣٩ فرانز روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مراجعة محمد توفيق حسني، بغداد مكتبة المثنى، ١٩٦٣، ص٢٠١.
٤٠ ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج١، ص١٤.
٤١ ابن الجوزي، مرآة الزمان،ج١، ص١٤.
٤٢ حول الكتابة التاريخية في هذه الحقبة وتطوراتها انظر: أنطوان ضومط، التأريخ في العصور الوسطى الإسلامية، دار الحداثة، بيروت، ٢٠٠٥، ص١٨٩-١٩٥.
٤٣ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت: ٧٤٨ه/ ١٣٤٧م)، العبر في خبر من عبر، تحقيق أبو هاجر محمد بيسوني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥، ج١، ص٣.
٤٤ الذهبي، تاريخ، ج١، ص ٤.
٤٥ روزنثال، علم، ص٢٠١.
٤٦ ابن كثير، البداية، ج١، ص٦-٧.
٤٧ ابن كثير، البداية، ج١، ص٦.
٤٨ ابن خلدون، عبد الرحمن أبو زيد. المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١١، ١٩٩٢.ج١، ص ٣٨.
٤٩ ابن خلدون، المقدمة، ج١ ص ٤٧.
٥٠ ابن خلدون، تاريخ ، ج١، ص ٤٨ .
٥١ ابن خلدون، تاريخ ، ج١، ص ٤٨.
٥٢ السخاوي، شمس الدين بن محمد (ت: ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) الإعلان وبالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، تحقيق فرانز روزنثال، مراجعة صالح العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ص١٧.
٥٣ السخاوي، الإعلان، ص١٨.
٥٤ السخاوي، الإعلان، ص١٨.
٥٥ طاش كبري زاده، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العليمة، بيروت، ط١، ١٩٨٥، ج٢، ص٢٣١.
٥٦ طاش كبري زاده، مفتاح، ج١، ٢٣١.
٥٧ حاجي خليفة، مصطفى جلبي، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، دار احياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج١، ص٢٧١.
٥٨ يمكن مطالعة التراث العربي التاريخي في العصر العثماني، في كل من: صلاح الدين المنجد، معجم المؤرخين الدمشقيين وآثارهم

المخطوطة والمطبوعة، دار الكتاب الجديد، بيروت،١٩٧٨. ص٢٧٩ وما بعدها؛ عماد عبد السلام رؤوف، التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني، دار الوراق، ٢٠٠٩؛ احمد طربين، التأريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث، دار الانشاء، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٧٠؛ مهند مبيضين أهل القلم ودورهم في الحياة الثقافية في دمشق في الفترة ١٧٠٨-١٧٥٨،المعهد الفرنسي ، الطبعة الأولى، دمشق، ٢٠٠٥.

٥٩ ابن طولون، شمس الدين محمد، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية، القاهرة ١٩٦٤، ج٢، ص،ص ٢٤-٣١.

٦٠ ابن الحمصي، حوادث، ص٣٨.

٦١ حول النهروالي انظر: طربين، التاريخ، ص١٤٨.

٦٢ قطب الدين النهروالي(ت:٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م) البرق اليماني في الفتح العثماني، عني بنشره حمد الجاسر، ط١، ١٩٦٧. ص١٨.

٦٣ بريك، الخوري ميخائيل (ت: بعد ١١٩٧هـ/ ١٧٨٢م). تاريخ الشام، ١٧٢٠/ ١٧٨٢م، ط١، عنى بتعليق حواشيه الخوري قسطنطين الباشا، مطبعة القديس بولص، لبنان، ١٩٣٠. المقدمة، ص١، يقول بريك: "لأن شوقي كان جزيلاً للتاريخ... وهلقدر فتشت ولم أجد تاريخاً...".

٦٤ بريك، تاريخ الشام، ص٣.

٦٥ ينعى عبد الرحمن الجبرتي واقع التاريخ في عصره ويطالب في مقدمته بالاهتمام بالتاريخ بقوله: ولم تزل الأمم الماضية من حين اوجد الله هذا النوع الإنساني تعتني بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا من بعد خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه منشغل البطالين وأساطير الأولين ولعمري إنهم معذورون وبالأهم مشتغلون.. فإن الزمان انعكست أحواله وتقلصت ظلاله وانخرمت قواعده في الحساب.." الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت:١٢٣٦هـ/ ١٨٢١م). تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٣ج، د.ط، دار الجيل، بيروت.ص٣.

٦٦ يقول ابن الحمصي في مقدمته:" ..وبعد فعلم التاريخ جليل المقدار، عظيم الأخطار، أنواره على ممر الدهور لا تطفئ.." ابن الحمصي، احمد بن محمد الأنصاري(ت: ٣٤هـ/ ١٥٢٧م)، حوادث الزمان و وفيات الشيوخ والأقران، دار النفائس، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص٣٨.

٦٧ ومن الأمثلة على ذلك مؤرخ دمشق ابن كنان الصالحي، ومن اليمن محمد بن علي الشوكاني في كتابه البدر الطالع وغيرهما.

٦٨ انظر: روزنثال، علم، ص٢٦.

٦٩ الجبرتي، تاريخ، ج٢، ص١٦٦.

٧٠ المصدر السابق، ج٢، ص١٧٣. يقول الجبرتي: **"لم يقع بها شيء من الحوادث التي يعتني بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم."**

٧١ الجبرتي، تاريخ، ج٢، ص ١٧٦.

٧٢ الجبرتي، تاريخ، ج٢، ص١٧٩.

٧٣ حول الصورة التاريخية لحملة نابليون على المشرق العربي في المصادر التاريخية انظر: البخيت؛ عدنان؛ القهواتي، حسين؛ مبيضين، مهند، قبسات من نصوص الأدبيات المعاصرة للحملة الفرنسية،مجلة الندوة،المجلد العاشر، العدد ٣،شعبان ١٤٢٠هـ/ تشرين الثاني ١٩٩٩، وانظر :

Hirsh. Napoleon: One Image, Ten Mirrors (Narrative & memory: The Quiason Monograph Series. Georgetown University, Faculty of Languages and Linguistics (2002).pp;61-83.

٧٤ الجبرتي، تاريخ، ج١، ص٥. وحول الجبرتي وتاريخه أنظر:احمد جدي، محنة النهضة ولغز التاريخ في الفكر العربي الحديث والمعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،٢٠٠٥،ص٨٠.

٧٥ الجبرتي، تاريخ، ج١٢،١.

٧٦ ابن الحمصي، حوادث الزمان، ص٣٧، ٣٨.

٧٧ الجبرتي، تاريخ، ج١، ص٥.

٧٨ الجبرتي، تاريخ، ج١، ص٤٠.